الإسلام والحضارة

مع أن الإسلام نشأ ، فى مكة والمدينة ، فى بيئة شبه بدوية قريبة من البدائية ؛ فقد كان يحمل بين تعاليمه بذار الحضارة ولقاح المدنية . وما إن اتصل العرب بالحضارة فى مصر والشام وفارس ، وتعلموا أسباب التحضر وفنون المدنية ، حتى تحولوا إليها ، فنشأت حضارة إسلامية راقية سامية ، ظلت مزدهرة ووارفة حتى القرن الرابع الهجرى . ولئن كانت بعد ذلك قد بدأت فى الذبول والخمول والانحدار إلى ظلمات الجهالة ؛ فإن ثمارها انتقلت إلى الأندلس حيث ظلت الحضارة أمدًا طويلاً .

وقد لحظ عبد الرحمن بن خلدون (١٣٣٢ - ١٤٠٦ م) ، فى القرن الرابع عشر الميلادى (السابع الهجرى) أن للحضارة صفات معينة وخصائص محددة تنطبع على الجماعة ، وعلى الأفراد سواء بسواء ، فهو يقول فى ذلك « إن المِصْر (البلد) بالتفنن فى الحضارة تعظم نفقات أهله ، والحضارة تتفاوت بتفاوت العمران ، فمتى كان العمران أكثر كانت الحضارة أكمل ... والمصر (البلد) الكثير العمران يختص بالغلاء فى أسواقه وأسعار حاجياته ... فتعظم نفقات أهل الحاضرة وتخرج عن القصد إلى الإسراف . وأما فساد أهلها فى ذاتهم ، واحدا واحدا على

الخصوص ، فمن الكد والتعب فى حاجات الفوائد ، والتلون بألوان الشر فى تحصيلها ، وما يعود على النفس من الضرر بعد تحصيلها ، بحصول لون آخر من ألوانها ، فلذلك يكثر منهم الفسق والشر والسفسفة والتحيّل على تحصيل المعاش من وجهه ومن غير وجهه ، وتنصرف النفس إلى الفكر فى ذلك والغوص عليه واستجماع الحيلة له ، فتجدهم أجرياء (مجترئين) على الكذب والمقامرة والغش والخلابة (الخداع) والسرقة والفجور فى الأيمان والرياء فى البياعات ، ثم تجدهم – لكثرة الشهوات والملاذ الناشئة عن الترف أبصر بطرق الفسق ومذاهبه ، والمجاهرة به وبدواعيه ، واطّراح الحشمة فى الخوض فيه حتى بين الأقارب وذوى الأرحام والمحارم الذى تقتضى البداوة الحياء منهم فى الإقذاع بذلك ، وتجدهم أيضًا أبصر بالمكر والخديعة ، يدفعون بذلك ماعساه ينالهم من القهر ، وما يتوقعونه من العقاب على تلك القبائح ، حتى يصير ذلك عادة وخلقا لأكثرهم ، إلا من عصمه الله ... ومن مفاسد الحضارة أيضًا الانهماك فى الشهوات والاسترسال فيها لكثرة الترف ، فيقع التفنن فى شهوات الفرج بأنواع المناكح من الزنا واللواط .. » (عبد الرحمن بن خلدون – المقدمة – نشر مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبنانى – صفحات ٦٦٤ ، ٦٦٥ ، ٦٦٦) .

فكأن ابن خلدون المسلم ، كتب (فى القرن الرابع عشر الميلادى أى السابع الهجرى) عن الحضارة الإسلامية ذاتها ، حيث

لم تكن ثم حضارة أخرى ولم تكن الحضارة الغربية « العالمية » قد بدأت بعد ، فلاحظ ان الحضارة تؤدى لا محالة إلى صفات معينة أبرزها اللين فى الخلق والطراوة فى الطباع ، كما أنها لابد أن تفضى إلى الاجتراء والكذب والمقامرة والغش والخداع والسرقة والفجور فى الايمان والرياء فى البياعات والانهماك فى الشهوات والتفنن فى أنواع المناكح كالزنا واللواط .

ولأن ابن خلدون كان عالمًا أمينًا ، ولم يكن دعائيا ولا مهيّجا ، فقد بين بصراحة ووضوح مالاحظه على الحضارة الإسلامية ذاتها ، قبل قيام الحضارة المعاصرة بوقت طويل ، وأدرك أن ملاحظاته تلك ليست عيبا ينبغى إنكاره والإصرار على الأغاليط فى نفيه ، وإنما هى نتائج طبيعية لكل حضارة مهما كانت شريعة أربابها ، إسلامية أو غير إسلامية .

منذ القرن الخامس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) بدأت الحضارة الإسلامية فى الانحدار السريع إلى مهاوى التخلف والسقوط الشديد فى ظلمات الجهالة . ويرجع ذلك إلى أسباب عدة ، أهمها – فى الحقيقة – أسباب ثلاثة :

أولاً : ذلك أن الأيديولوجيا الإسلامية (خلط الدين بالسياسة واستغلاله لتحقيق أهداف سياسية وأغراض حزبية بدلا من ترفيع هذه الأغراض وترقية تلك الأهداف بالقيم الدينية) هذه الأيديولوجيا ، بدأت منذ بواكير التاريخ الإسلامى فخالطت قيم

الدين ، وداخلت قواعد الشريعة ، وغالبت أسباب الحضارة ؛ فكانت من أهم وأول الأسباب لخفوق دفعة القيم الدينية ، وسكون شدة قواعد الشريعة ، وخمود وهج الحضارة الإسلامية ، مما كان ولابد أن ينتهي إلى ما ينتهى إليه أمر كل أيديولوجيا من جمود وانهيار وسقوط .

ثانيًا : وقد بدأ قفل باب الاجتهاد الفقهى منذ القرن الرابع الهجرى ؛ ولأسباب سياسية فى الحقيقة ودينية فى الظاهر ، فإن الخليفة العباسي أمر علماء الفقه فى المدرسة المستنصرية أن يقصروا دروسهم على أقوال الأئمة من قبلهم ولا يدرسوا كتابًا من كتبهم هم لتلاميذهم . وخلص الأمر إلى أن وافق جميع فقهاء المذاهب الأربعة على ذلك ، فانتهى أىّ إبداع أو انشاء أو تجديد فى الفقه الإسلامى ؛ وقُفل باب الاجتهاد تمامًا ، فتحولت الحضارة الإسلامية إلى التقليد بدلا من التجديد ، وبذلك أفلت . وضمرت وذوت .

ثالثًا : غلبة فكر الأشاعرة وأبو حامد الغزالى (١٠٥٩ – ١١١١ م) من ضرب العقل وتقويض مبدأ السببية . وخلاصة مذهب الغزالى – وهو تقنين لفكر الأشاعرة – « أنه لا توجد إلا علّية واحدة هى علية وجود المريد ، أى الله ، أما علية الطبيعية ، أو ماتلحظه المشاهدة من وجود علة بين شيئين كإضرام النار واشتعالها فى الأشياء من ثم ، أو إحداث إصابة تعقبها وفاة ، أو رش ماء يتبعه بلل ، كل ذلك أمر منكور ومردود إلى علاقة

زمانية بين الشيئين ؛ أى حدوث أمر تتابع بينهما ، فليست النار هى التى أشعلت الأشياء ، ولا الإصابة أحدثت الموت ، ولا الماء أنشأ البلل ، إنما ذلك كله تهيؤ فى ذهن الناس لحدوث هذه بعد تلك ، والفاعل فى الحقيقة ، والسبب هو وحده الله سبحانه ، لا هذا الشيء أو ذاك » .

ولما ساد هذا الفكر وغلب على العقل الإسلامى ، صارت الحقيقة عنده وهمًا ، والظواهر خداعًا ؛ والعقل مضللا ؛ وانتفت السببية واختفت العلية ؛ وصار الإنسان المسلم جسمًا مهملاً أو وهمًا مسيطرًا ، ليست له فاعلية أو إيجابية أو مبادأة أو مبادرة ، وتقوضت بالتالى أسس العلوم وقواعد الفهم التى لا تستوى ولا تستقيم إلا على مبدأ السببية وفكرة العلية .

وحينما انطفأت مشاعل الحضارة فى المشرق بدأت تنتقل إلى الغرب من شبه جزيرة الأندلس ، ومن صقلية وجنوب إيطاليا ، ونتيجة للحروب الصليبية فى الشرق الأدنى ، واخذ الغرب عن المسلمين منهج علم أصول الفقه الذى يقوم أساسا على التجربة والملاحظة ، لا على الاعتقاد الجازم ولا على الجدل اللفظى ؛ كما أخذوا عنهم تبجيل العقل الإنسانى وقدرته على الوصول إلى الحقائق (نقلا عن ابن رشد ١١٢٦ – ١١٩٨ ، وهو صميم الإسلام وأساس القرآن) . ومن تفاعل هذين الاتجاهين ، وغيرهما ، مع التراث الغربى من الفلسفة الإغريقية (التى عرفوها من المسلمين) والتنظيم الرومانى والفكر الرومانى والفكر الدينى (وخاصة المسيحى

واليهودى) من كل ذلك ، بدأت ترتفع قواعد الحضارة فى أوروبا أولاً ، ثم انتقلت مع المهاجرين إلى أمريكا ، ثم إلى أستراليا ، ثم بدأت تنتشر فى العالم رويدًا رويدًا حتى صارت حضارة عالمية ؛ بتمثلها كل التراث الإنسانى ، وبانتشارها فى كل البلاد ، غربًا وشرقًا ، شمالاً وجنوبًا ، فمن يرى مدينة طوكيو اليابانية ، ومدينة هونج كونج الصينية ، ومدينة بومباى الهندية ، ومدينة جوهانسبرج فى جنوب أفريقيا ، ومدينة دبى فى الإمارات العربية ، ومدينة الرياض فى السعودية ، لا يكاد يميزها من بعض المدن الأمريكية إلا من سكانها والناس فيها ؛ ناهيك عن تشابه البيوت والمساكن فى شتى بقاع المعمورة من حيث البناء والتقسيم والترتيب والأثاث والأجهزة المستعملة فيها . هذا فضلاً عن أن لغة العلم أصبحت لغة عالمية تصدر عن اليابانى والصينى والهندى والفرنسى والألمانى والأمريكى بطريقة واحدة ، فالمعادلات واحدة والمفاهيم واحدة والأداء واحد ، وكل من هؤلاء يستطيع أن يتعامل مع الأجهزة الميكانيكية والكهربائية والالكترونية بطريقة واحدة لاتفترق فى أقصى الشرق عنها فى أقصى الغرب ؛ وهو يحملها معه أنىّ ذهب ويمارسها أينما كان ، بذات الأسلوب ونفس الطريقة .

هذه الحضارة العالمية ، بخصائصها وبنيتها وانتشارها ، تفاعلت فى كل منطقة وفى كل بلد مع التراث الشعبى والتقاليد الاجتماعية ، والعادات المستقرة فكونت ثقافات متعددة ، فثم ثقافة أمريكية وثقافة فرنسية وثقافة يابانية .. وهكذا .

الحضارة هى الأسلوب العام فى العلم والتقنية والإنتاج ونظام

الحياة وطرائق المعيشة ؛ أما الثقافة Culture فهى تفاعل هذه الحضارة مع التراث والتقاليد والعادات فى كل منطقة متماثلة أو كل بلد محدد بما ينتج أسلوبا خاصا فى الفهم والأداء والتعامل يختلف من مكان لآخر . فالثقافة الأمريكية غير الثقافية الفرنسية غير الثقافة اليابانية ، وإن كانوا جميعًا ينتشرون تحت مظلة الحضارة العالمية ويخرجون من داخل عباءتها .

من الخطأ إذن أن يقال إن ثمة حضارة أمريكية نشأت فى ظروف خاصة هى تفاعل المهاجرين مع أوضاع وطبيعة القارة الأمريكية ؛ لأن ما يسمى حضارة أمريكية هو فى الواقع ثقافة أمريكية تكونت نتيجة لتفاعل الحضارة ، بكل عناصرها ، مع المهاجرين إلى أمريكا ، فى ظروف الهجرة والطبيعة وما نتج عنهما .

ولكل ثقافة طابع عام قد يتماثل مع غيره وقد يختلف . والثقافة الأمريكية – مثلا – قوامها الإيقاع السريع ، والتنظيم الشديد ، والميل إلى الضخامة ، والنزوع إلى الإبهار ، والتأكيد على العامل الاقتصادى . وقد انتشرت هذه الثقافة عبر العالم ، ونازعت ثقافات اخرى ، لأسباب متعددة منها ضخامة القارة الأمريكية ومكانتها السياسية التى أدت إلى تمركز المنظمات الدولية بها ؛ هذا فضلاً عن انتشار اللغة الإنجليزية وصيرورتها اللغة الأولى فى العالم – بعد أن أزاحت الفرنسية جانبًا – وذيوع اللكنة الأمريكية بسبب الأفلام والمسلسلات الأمريكية التى تعرض فى كل مكان فى العالم ، وخاصة من خلال التلفاز ، مما شكل وجدانات الناس وسيطر على

أحلامهم . يضاف إلى ذلك ، قيام الشركات المتعددة الجنسية Multi Nationals فى الولايات المتحدة أساسًا ، لهيمنتها الاقتصادية وضخامة سوق الإنتاج والاستهلاك والتوزيع والإعلان فيها ، بما أدى إلى وجود تأثير مباشر ، مالى واقتصادى ، على كثير من البلاد ، وهو مادفع بهذه البلاد إلى أن تتفاعل مع آثار الثقافة الأمريكية ، بأغلب خصائصها ، حتى صارت شبه متأمركة . غير أن بعض البلاد ، كفرنسا ، تقاوم الثقافة الأمريكية ، وخاصة المأكولات السريعة وارتداء « الجينز » ومضغ اللدائن وما ماثلها ؛ بينما تعمل بلاد أخرى ، كاليابان ، على المزاوجة بين ثقافتها الخاصة التقليدية وبين الثقافات الوافدة وخاصة الأميريكية . ومثل هذه البلاد لا تقاوم الثقافة الأميريكية بنبذ الحضارة أو تشويهها ، لأنها تعلم أنها جزء من هذه الحضارة العالمية ، لكنها تعمل بأسلوب علمى على تأكيد ثقافتها مع الأخذ بما يمكن أن يتلاءم معها من ثقافات أخرى ، وبخاصة من الثقافة الأمريكية التى تملأ أجواء العالم وتنفذ إلى كل بيت وكل نفس .

وقد كان من الطبيعى أن تنتهى الحضارة العالمية المعاصرة إلى ذات الخصائص التى ظهرت فى الحضارة الإسلامية والتى لاحظ ابن خلدون ، العالم المسلم الذى لم يتأثر بغرب أو بشرق ، أن كل حضارة لابد أن تتأدى إليها ، وهكذا نضحت على الحضارة العالمية خصائص اللين فى الخلق والطراوة فى الطباع ، والاجتراء والكذب والمقامرة والغش والخداع والسرقة والفجور فى الإيمان والرياء فى البياعات والانهماك فى الشهوات ، والتفنن فى أنواع

المناكح كالزنا واللواط ، وهو ماذكره ابن خلدون نصًّا عن الحضارة الاسلامية فى وقته . فهذه الخصائص والصفات ليست أمرا مقصورا على الحضارة المعاصرة ، لكنها سدى كل حضارة ولحمة أى مدنية.

والذى يرى السلبيات السالفة فى الحضارة المعاصرة وحدها ولا يراها فى غيرها ، مع ثبوت ذلك (على الأقل من مقدمة ابن خلدون) ، أو لايرى أى إيجابية أخرى ، هو بلاشك ظالم لنفسه مفسد لعقول من يصدقونه . فإلى جوار الخصائص المذكورة ، بل وقبلها ، توجد المكتبات والجامعات ودور العلم ومراكز البحوث والمتاحف والمعارض والمسارح وأماكن عزف الموسيقى (الكونسيرات أو دور الأوبرا) ، كما توجد أماكن العبادات المختلفة والحرية والديمقراطية واحترام حقوق الإنسان (وإن كان ذلك بدرجات غير مطلقة بعد) ، ويوجد النظام والنظافة والأمانة ورغبة البحث وتشرب العلم ، وتنوع الثقافة وكسب جوائز العلوم والتفوق فى كل الألعاب الرياضية ، وغير ذلك من عناصر إيجابية لا يجحدها إلا من كان مثل الثعلب الذى لم يستطع أن يصل إلى أكل العنب فقال إنه حصرم .

فالعاجز عن المنافسة والقاصر عن الإنشاء والعاطل من الإبتدار يغطى عجزه وقصوره وعُطله بأن يضخم من ذاته ، ويقلل من شأن غيره . ومن هذا المعنى ، فإنه لا ينبغى لمصرى أو لعربى أو لمسلم أن يجد هذا العجز والقصور والعطل فى نفسه ، ثم لا يعمل على مداواته والقضاء عليه بالعمل السديد والخلق الرفيع

والتكامل المتواصل . إن الشعور بالدونية إزاء الحضارة العالمية ، أو الإحساس بالعار أمام الثقافة الأمريكية خطأ ما بعده خطأ . ذلك لأن الحضارة المصرية القديمة والحضارة الإسلامية ساهمتا إلى حد كبير فى هذه الحضارة العالمية من خلال العلم المصرى القديم ، والفكر الدينى الذى نشأ فى مصر ، ومن خلال منهج علم أصول الفقه وعناصر الحضارة الإسلامية التى تتأسس على احترام العقل وتقدير الإنسان . هذا فضلاً عن اللياقات الاجتماعية (الأتيكيت) والمراسم العامة (البروتوكول) وغيرها .

كل ما على المصرى والعربى والمسلم الآن أن يعمد إلى تغيير بنية تفكيره ، فيتخلص أولاً من عقد الدونية وأحاسيس العار لكى يستطيع أن يكون سويا متوازنا فى فهْمه للأمور ، وفى حسن تقديرها ثم التعامل معها . بعد ذلك عليه أن يتخلص من عقلية الريع ، تلك العقلية التى تفضّل – بدلاً من العمل – الركون إلى عوائد العقارات والنفط والأوراق المالية لتعيش . فمثل هذه العقلية تنتهى إلى بلادة الطباع وفساد التفكير والإدمان المرضى على الاستهلاك ، ومن ثم فهى تحول دون الإسهام فى إنتاج الحضارة ، بل وتؤدى إلى السقوط فى هاوية البداوة وديناجير البدائية ، فتمعن فى الاستهلاك وهى تلعن الحضارة التى تشعر أنها تمتهنها وتحتقرها ، ولا تدع لها مكانا فيها للمساهمة فى الإنتاج والإبداع والتفوق .

إن استعمال جهاز واحد كالتلفاز « التليفزيون » يغير أسلوب

حياة الأسرة ، ونمط تعاملهم مع بعضهم البعض ؛ كما يغير من العادات الاجتماعية ، بل ويؤثر على أماكن وطرائق التجمع فى المقاهى والأندية وغيرها ، والاستسلام لما ينتج عن هذه الأجهزة من نتائج إيجابية أو سلبية دون التصرف الواعى الطليق إزاءها ، وبغير إحداث توازن بين الإنتاج والاستهلاك ، أمر شديد الخطورة على نفسية الشخص وعلى بنية المجتمع ..

والعمل الصحيح الواعى الطلق يكون فى الفصل بين الحضارة والثقافة ، والتمكن الفعّال من أسباب الحضارة ودواعى المدنية ، مع الدراسة العلمية المتأنية لما يمكن ان يُنتخب من ثقافتنا التقليدية ، لتكوين ثقافة أصيلة ، تتفاعل بقدرة وأمان مع كافة عناصر الحضارة العالمية والثقافات المختلفة لتكون مؤثرة فى كل فهْم ، فتقلل من سلبيات الحضارة وعيوب المدنية ، ثم تضيف إلى الحضارة إضافة حقيقية وتأخذ من الثقافات المتعددة ما يتوافق مع ثقافتنا ويعزز من بنيتها .

وبغير ذلك فسوف نعيش فى الأوهام ولن نصحو من الأحلام !